الدلالة في البنية العربية بين السياق اللغوي والسياق المقالي

الدكتور
كاصد ياسر الزيدي
الاستاذ بقسم اللغة العربية
كلية الآداب — جامعة الموصل

للبنية مفهومان في الاصطلاح اللغوي ، فقد يراد بها بناء اللفظة المفردة ، أي الصيغة ، كما يعبر أيضاً . وقد يراد بها التركيب في نظم الكلام ، وهو التركيب الاسنادي كالذي بين المبتدأ والخبر ، والفعل والفاعل ، والمفعول ونائب الفاعل . أو التركيب الاضافي ، كالذي بين المضاف والمضاف اليه حين يكونان اسمين مثل « قول الحق » ، أو يكون المضاف منهما ظرفاً والمضاف اليه اسماً مثل « أمام الدار » وقبل الفجر » ، سواء أكان الظرف مكانياً أم زمانياً ، كما هو واضح في المثالين . ثم هناك أيضاً التركيب الوصفي الذي تقوم علاقته على ارتباط صفة بموصوف ، سواء أكان الواصف اسماً مفرداً ، أم كان تركيباً ، كالذي جمعته الآية الكريمة : (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) [البقرة : ٢٦٣] ، إذ ضمت صفتين إحداهما مفردة (معروف) والأخرى مركبة (يتبعها) إذ القاعدة في هذا ان الجمل بعد النكرات صفات ، وبعد المعارف أحوال. فهذان تركيبان وصفيان (صفة وموصوف) وردا بنمطين نحويين مختلفين ، عند النظر إلى صورة الصفة فيهما .

والمفهوم الثاني ، أي : ((التركيب)) هو المراد عموماً في تعبير الدلاليين المعاصرين والقدامى كذلك ، إذا قالوا : بناء الكلام ، أو بنية الكلام ، لأنهم في ذلك لا يقفون عند اللفظة المفردة ، والصيغة الواحدة ، بل يتجاوزونها إلى التعبير كله ، أو الجملة . ومن مجموع هذه الجمل والتراكيب يتكون الكلام ، الذي به تظهر وظيفة اللغة ، وهي التوصيل ، وترتبط بالدلالة ، التي عندها تنتهي كل نظم اللغة من صوتية وصرفية ونحوية وتركيبية (١) .

على أن المفهوم الأول للبنية لا يُهمل ، وهو المتمثل ببناء اللفظة المفردة ، من حيث إنه يدخل في نطاق المفهوم الثاني في العربية ، ذلك أن الصيغ كثيراً ما تحدد الدلالة التركيبية ، بهذا المعنى أو ذاك وفقاً لما يطرأ عليها من تغيير وتحويل . فقولنا مثلاً : ((قُرِئَ الكتابُ)) و ((قُرِّئَ الكتابُ)) ، فيه صيغتان :

الأولى : بناء الفعل الماضي للمجهول مع عدم التشديد ؛

والثانية : بناؤه للمجهول مع التشديد .

وليس المعنى في التركيبين — بحسب قواعد العربية — واحداً ، إذ الثاني أفاد التكثير ، تكثير حدوث فعل القراءة . ومعلوم أن ((فعّل)) يفيد في ما يفيد في العربية — التكثير كما هو مقرر في قواعد الصرف (٢) .

على حين أن الأصل قبل بناء الفعل للمجهول هو : ((قرأ الأديب الكتاب)) ، يدل على وجود الفاعل في التركيب من جهة ، وعلى وحدة الحدث — وهو عدم تكريره — من جهة أخرى ، وعلى حين أن التعبيرين السابقين : ((قُرِئَ)) و ((قُرِّئَ)) أفادا البناء للمجهول مع تعدد الحدث في الصيغة الثانية للفعل ، وأفادا عدم ظهور الفاعل والتعريف به وبأهميته ، لسبب من الأسباب التي صدرت عن فكر المتحدث . واستلزم اختفاء الفاعل أو إخفاؤه إحداث

---

(١) ينظر : ريمون طحان ، الألسنية العربية ، ١/ ٣٣ ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨١ .
(٢) ابن قتيبة : أدب الكاتب ص ٣٦٤

تحويل في صيغة الفعل وبنيته ، كما رأينا ، من (فَعَلَ) الى (فُعِلَ) و (فَعَّلَ) ، ونيابة المفعول به مناب الفاعل ، إذ ليس ثمّ ما ينوب عنه أولى من المفعول الذي يعد في النحو الرسمي المعهود فضلة (١) وليس عمدة ، على حين هو لدى دارسين محدثين ليس كذلك ؛ إذ ينظر اليه على أنه جزء مهم من الجملة (٢) . وحذفه في مواضع لأغراض دلالية ، عند عدم اللبس ، لا يلغي هذه النظرة التركيبية والدلالية له ، لأنه عند الحذف — في الواقع — ملحوظ ومقدر في الفكر ، بمعنى من المعاني وصورة من الصور . كالذي في الآية الكريمة (فأما من أعطى واتقى) [الليل : ٥] ، إذ حذف مفعولا الفعل الأول ومفعول الثاني . على حين اكتفى الفعل الأول في تركيب آخر ، بمفعوله الأول دون الثاني ، وذلك في قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) [الضحى : ٥] .

ومع ان هذين النمطين من البناء يرجعان الى النحو التقليدي ، الا أنهما يتصلان من جانب آخر بالبلاغة ، إذ يعد الحذف من فنونها ، بعد انسلاخ علم المعاني من الدرس النحوي في العصور المتأخرة ، لينضم إلى قافلة الدرس البلاغي (٣) ، ويدع النحو فاقداً لجزء مهم من كيانه .

يصدق التباين الدلالي في البنى العربية ، على التقديم والتأخير أيضاً . فقولنا : (لم أقرأ هذا الكتابَ) ، يختلف في دلالته عن قولنا : (هذا الكتابُ لم أقرأه) ، وإن بدا لغير العارف بذلك ، ان دلالته واحدة . وهذا التباين الدلالي بين التركيبين يقوم على ان للتقديم والتأخير في بنى العربية مقاصد يتوخاها المتكلم ، ويريد ايصالها إلى السامع ، وليس حدوثه شيئاً اعتباطياً يجري بمعزل عن تغيير الدلالة وتحديدها ، في الجزء المحول من التركيب .

---

(١) هم يقسمون الكلام على قسمين : عمدة وفضلة : فالعمدة ما كان علاقته الاسناد ، وغيره فضلة .

(٢) ريمون طحان : الألسنية في العربية (٣) ص ٧٦ ، دار الكتاب اللبناني — بيروت ، ط٢ /١٩٨١م .

(٣) د. احمد عبدالستار الجواري : نحو التيسير ، دراسة ونقد منهجي ص ٣٢ ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٤م .

وإذا كان البلاغيون العرب يعدون من أغراض التقديم والتأخير الاهتمام بالمقدم والتركيز عليه ، فانا نجد الحال كذلك في هذين التعبيرين ، وهو ما لا يجد له اللغويون غربيون فرقاً في الانكليزية .إذ نرى جون لاينز (٤) يقرر ان هذين التركيبين لا علاقة لهما بالتركيب النحوي أو التركيب الدلالي للجمل ، إنما له علاقة بنطق الجملة ذاتها في ترتيب معين من الكلمات يحدده السياق » .

على حين يرى الدلاليون العرب وفي مقدمتهم البلاغيون ان الاهتمام في الجملة الفعلية المنفية : (لم أقرأ هذا الكتاب) ،قد انصب على الحدث ، وهو عدم القراءة ، ولذا قدم الفعل — مع نافيه (لم) في التركيب فتصدّره. على حين انصبّ الاهتمامُ في النمط الثاني ، نمط الجملة الاسمية بعد التحويل : (هذا الكتابُ لم أقرأه) على الكتاب المشار اليه باسم الاشارة (هذا) دون غيره من الكتب ، ليبينه ويميزه من غيره من الكتب التي لم يقرأها .

وإذا كانت البنية قد دلت على هذا التحويل في الصيغة وفي التركيب في قولنا : (قرأ الأديب الكتاب) و (قُرِىء الكتابُ) و (قُرّىء الكتاب) ؛ على ما تقدم بيانه ، فان الشكل الكتابي دل على ذلك أيضاً في هذه الألفاظ المحولة ، وهي ميزة عرفت بها العربية من بين كثير من اللغات إذ تغير رسم الهمزة في الفعل (قرأ) من صورة إلى أخرى . فبعد ان كانت مرسومة على الألف الطويلة (أ) صارت بفعل التحويل مرسومة على الألف القصيرة أ(ىء) أو اللينة كما تسمى أيضاً .

وإذا كان الأمر كذلك في صيغة هذا الفعل (المهموز)الآخر ، فانه في غيره لا ينبىء في كثير من الأحيان عن هذا التحويل في بنية اللفظة ودلالة التركيب ونمطه ، إلا بالنظر إلى السياق واستعمال العقل . فجملة : (قُتِلَ

(١) اللغة والسياق والمعنى ، ترجمة د. عباس صادق ، مراجعة د. يوئيل عزيز ، دار الشؤون الثقافية ، ١٩٨٧ ص ١٣٤ .

اللصّ) إذا وردت مجردة عن الحركات الاعرابية ، وهي هنا (الصوائت القصيرة) ، لا يمكن ان تحمل بعد التحليل العقلي لها ، إلا على نمط واحد ، أو لنقل : صورة تحويلية واحدة هي : (قتل اللصُ) ببناء الفعل لصيغة المجهول ، ورفع الاسم الذي بعده على أنه نائب فاعل . فليس للرمز الكتابي هنا دخل في هذا الادراك والتحليل السريع الآني لنمط الجملة . وهو إدراك ينبغي ان يصحب قراءة التركيب تقريباً ولا يحتمل — مع توفر القدرة العقلية ، والمعرفة اللغوية — المتأخر كثيراً عن زمن الانتهاء من قراءة هذا التركيب الثنائي المؤلف من (فعل مبني للمجهول + نائب فاعل). أو (فعل + اسم).

فهذه الصورة البنائية الثنائية ، مع تلفظ الفعل الماضي بصيغة البناء للمجهول — بضم أوله وكسر ما قبل الآخر كما هو مقرر في النحو — ورفع الاسم الذي بعده ، إنما هي صورة (ملزمة) هنا — وليست (اختيارية) في النحو التقليدي ، إلا بضرب من التجوز كما سنرى . ذلك ان فكرة البناء للمعلوم يجب ان تستبعد هنا تماماً ، لأن طبيعة البنية العربية لا تسمح بمثل هذا التصور والاختزال في وحدات الكلام ، لتكون : (قُتِلَ اللصَّ) ، أي : فعل مبني للمعلوم + فاعل ، وهذا يعود إلى خاصية هذا الفعل ، وهو أنه لا يقف عند حدود أخذ الفاعل ، بل يتجاوزه إلى المفعول ، ولذلك أطلق عليه في النحو اسم (المتعدّي) ، وقوبل بـ (اللازم) أو (القاصر) ، على اختلاف التسميات لاصطلاحية . وهذا الفعل (قَتَلَ) متعد إلى مفعول واحد (١) .

وبذلك فان النمط المعهود لتركيب الكلام ، من هذا الفعل في صورته الأصلية (اي قبل بنائه للمجهول هي : (فعل + فاعل + مفعول) ، إذ يقتضي ذلك ذكر المفعول وإظهاره ، ليكون الكلام : (قَتَلَ اللصُّ المسروق) مثلاً . وعلى هذا فان بنية هذه الجملة الثنائية : (قتل اللص) تقتضي أن يكون بناء الفعل والجملة على أساس البناء للمجهول باجراء التحويل الصوتي عليه ليكون : (قُتِلَ اللصُّ).

---

(١) من الأفعال ما يتعدى إلى مفعولين مثل (ظن) واخواتها في المعنى ، ومنها ما يتعدى الى ثلاثة

غير ان استثناءات العربية التي أشرنا اليها آنفاً ، تسمح مع ذلك بأن يكون الفعل في هذا التركيب الثاني ، بصيغة البناء للمعلوم ؛ وذلك حين ندخل في الدلالة الجانب البلاغي ، الذي يقرر ان المفعول قد حذف من الكلام ، وهو (المسروق) أو نحوه ؛ لغرض من الأغراض المعروفة في البلاغة العربية : كالجهل بالمقتول ، أو عدم الاكتراث به ، كأن قد يكون حيواناً حقيراً كالكلب مثلاً ، أو منتجاً كالبقرة أو مصنعاً كالحصان ؛ إذ هي بازاء حياة الانسان هينة في العرف الاجتماعي عندنا . وقد يكون الحذف للاثارة والتشويق لمعرفة المقتول ، أو لتهويل الأمر واعظامه ؛ بحيث يذهب الفكر مع هذا الحذف في تخيل المحذوف وتشخيصه مذاهب شتى ، وما إلى ذلك من أغراض .

وبهذا نستطيع بهذا التقدير لطبيعة التركيب والبناء ، أن نعيد إلى النحو ما كان له من صلة بعلم المعاني ، الذي كان يطلق عليه اسم معاني النحو ؛ ونرد له جانباً من جوانبه المهدورة ، وهو الذكر والحذف وارتباطهما بالدلالة .

ومن الواضح أن البنية النحوية تتأثر بالسياق اللفظي للتركيب ، إذ قد وجدنا — في ما تقدم بيانه — كيف ان غياب الفاعل في (قُرِىء الكتابُ) لزمنا أن نعد الفعل محولاً إلى صيغة البناء للمجهول بقرينة (الكتاب) ؛ إذ لا يصح عقلاً ان يوصف الكتابُ بأنه (يَقْرأ) ، وإنما يصح ان يوصف بأنه (يُقْرأ) . وبذلك نلتقي في هذا الاعتبار بما تذهب اليه المدرسة التوليدية — التحويلية ، التي تزعمها نوم جومسكي ، من أثر العقل في التحويل بانتاج عدد من الجمل ، وهو الذي سماه (القدرة) (١) Competence . فالجانب العقلي مهم في مثل هذا التعبير في العربية ؛ بحكم طبيعة هذه اللغة التي يؤلف الاعراب — بحركاته المختلفة — أساساً من أسس دلالاتها ، كالفاعلية والمفعولية والوصفية والحالية والاضافة وما إليها .

---

(١) د. يوئيل عزيز : مقدمة (البنى النحوية) لجومسكي ص ٥ ، دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٨٧م .

ومن الجوانب التحويلية في العربية « قواعد إعادة الترتيب : التقديم والتأخير وما أشبه . ويتمثل ذلك فيما يسميه العرب (فضلة) كالمفاعيل والحال ... الخ » (١) ، إذ ترتبط البنية فيه بالدلالة ، أي بالفكر ، والمعنى الذي قصد اليه المتحدث . وهو ما لم يفت الدلاليين القدامى ، وخاصة النحويين والبلاغيين منهم كالزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) الذي التفت بحذق وبراعة الى تغير الدلالة ، بتحويل المفعول وهو لفظ الجلالة (الله) في الآية الكريمة : (إنما يخشى الله من عباده العلماءُ) [فاطر : ٢٨] من نسقه الذي يتلو الفاعل عادة في الترتيب إلى نسق آخر ، هو التقدم على الفاعل (العلماءُ) لغرض التخصيص ، إذ المعنى ، كما تبينه الزمخشري(٢) : «إن الذين يخشون الله من عباده هم العلماء ، دون غيرهم ، وإذا عملت العكس – يقصد جعلت الفاعل متقدماً على المفعول – انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله ، كقوله : (ولا يخشون أحداً الا الله) » . وتمتاز العربية بأنها وسط بين اللغات التي فيها تركيب الكلمات مقيد كالفرنسية وبين التي فيها قواعد ترتيب الكلمات قليل ، والعربية أقرب إلى الفرنسية إذ قواعد الترتيب فيها قاسية لا تتم بسهولة بدون قيد أو شرط (٣) .

فهذا ونحوه مما مثلنا له سالفاً من مظاهر التحويلية في النحو العربي التقليدي ، ولكن في حدود دلالتها على البنية العميقة للجملة . وبذلك يتضح لنا علاقة البنية المفردة والمركبة بالدلالة في العربية ، وكيف تتأثر هذه البنية بالمعنى الذي يرمي اليه المتحدث ، كما أنها باعتبار خصوصية العربية تكون دليلاً على المعنى في كثير من الأحيان بالنسبة للمتلقي ، إذ إنه قد يحور البنية ، أو لنقل يحولها من صيغة إلى صيغة ، ليصل إلى الدلالة المنطقية التي تلائم العقل ، محكماً في ذلك السياق والعقل ، على نحو ما رأينا في عبارة (قتل

---

(١) د. عبي زوين : منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث ، ص ٤٨ ، دار الشؤون الثقافية – بغداد ١٩٨٦م .

(٢) الكشاف ٥٧٦/٣ ، وينظر كتابنا : فقه اللغة العربية ص ١٣٢ – ١٣٣ ، دار الكتب – الموصل ١٩٨٦م .

(٣) برجستراسر ، التطور النحوي ص ١٣٤ ، تصحيح رمضان عبدالتواب – دار الرفاعي – الرياض ١٩٨٢م .

النص) إذ لم يجد لها قارئها الا بنية واحدة هي البناء للمجهول . وهذا كله يتعلق لا شك – في ما أوردناه – باللغة المكتوبة وإلا فانه لا يستدعي كل هذا العناء والغموض لو وصل إلى السامع عن طريق اللغة المنطوقة .

والذي أردنا توكيده هنا أيضاً ، ما غاب عن أذهان كثير من الباحثين في النحو العربي ، وفي البلاغة العربية ، أو الباحثين في البنية والدلالة في العربية ، من ارتباط كثير من الموضوعات التي عدت من البلاغة ، بالنحو والبنية والدلالة في العربية ، بحيث نستطيع ان نقول بحق ، إنها جزء لا يتجزأ منها ، كالتقديم والتأخير ، والحذف والذكر . وهي التي عقدنا عليها امثلتنا في كلامنا السالف . وهناك كثير غيرها رآه باحثون معاصرون (١) من الجوانب التحويلية أيضاً في النحو العربي ، كقضية الأصلية والفرعية في التنكير والتعريف والافراد والجمع ، وقضية العامل ، والزيادة والاقحام في الأدوات الحرفية والاسمية والفعلية . فكثير مما عد في القديم والحديث من موضوعات علم البلاغة وحده ، غدا اليوم لدى المحققين من الباحثين جزءاً لا يتجزأ من البحث اللغوي . فليس من المفيد ان ينظر إلى علم أو فن على أنه مستقل ليسمى (البلاغة) (٢) .

كما ان كثيراً مما التفت اليه البنيويون المعاصرون ، من خصوصية لطائفة من صيغ البناء للمجهول ، لم يفت قدامى النحاة والدلاليين العرب ، بل شخصوه واستقروه حتى كادوا ان يحصوه ؛ فقد لاحظوا أن من هذه الصيغ ما لا يقبل التحويل من صورته التي هو عليها إلى الصورة الأولى التي كان عليها ، ذلك ان نظام البناء للمجهول في العربية ليس مطرداً ، فمن التراكيب ما لازم حالة البناء للمجهول فاستعصى بذلك على التحويل مثل :

---

(١) عثمان امين : الفلسفة اللغوية. ص ٤٣ ، ٢٤ ، سلسلة المكتبة الثقافية – القاهرة ١٩٦٥م وينظر : علي زوين : منهج البحث اللغوي ص ٤٧ .

(٢) منهج البحث اللغوي ص ٤٨ .

(زُكِمَ الرَّجلُ) و (فُلِجَ) (١) ، و (اشْتُهِرَ) ، و (عُنِيَ بِهِ) » و (هُرِعَ اليه) (٢) ، و (سُقِطَ في أيديهم) (٣) و (جُنَّ الرجلُ) ».

وطبيعة العربية تقتضي ان نعد هذه الصيغ والتراكيب محولة من حالة أولى إلى هذه الحالة الثانية. فالاولى هي صيغ وتراكيب البناء للمعلوم التي استغني عنها في أزمان تاريخية غير معلومة، واستعيض عنها بهذه الصيغ المحولة، لسبب من الأسباب لا نستطيع معرفته ولا تحديده ، الا في عدد منها ، كنيابة مادة الفعل عن الفاعل في مثل (جُنَّ الرجل) ، إذ لو تكلفنا ردّ الفاعل المحذوف بعد تحويل التركيب إلى صورته الأولى لوجدنا أنفسنا نقول : « جَنَّ الجِنُّ الرجلَ) ، ذلك ان الجنون في التصور العربي القديم يُرد إلى هذه المخلوقات المخفية عنا . — وهي الجن — . فلما اتحدت مادة الفعل ومادة الفاعل ، نابت صيغة الفعل عن صيغة الفاعل ، وأجري التحويل على الفعل ليلائم هذا النسق النحوي الجديد .

وعلى هذا فان في العربية صيغاً جمدت على البناء للمجهول .. وكان (نوم جومسكي) قد لاحظ ان عدداً من العبارات ليس لها في الانكليزية — أيضاً — صيغة البناء للمعلوم، فاتخذ ذلك « دليلاً ضد وضع تحويل من المبني للمجهول إلى المبني للمعلوم » وكان المثل الذي استخدمه الثالث هو

John was drunk by midnight ((٤))

وهذا في الواقع لايصدُقُ على العربية ،ولاينطبق عليها. إذ لم يقل أحد من النحاة القدامى : إن وجود صيغ لا تحول إلى البناء للمعلوم « كالتي ذكرناها آنفاً ، تدل على ان صيغ البناء للمجهول ،ومنها هذه الصيغ الشاردة

---

(١) قال الفيروز آبادي في القاموس المحيط : «وفلج كعني فهو مفلوج» يريد انه مبني للمجهول ٢٠٣/١ (فلج) .

(٢) وقال ايضاً في القاموس : «واقبل يهرع بالضم ، وفي التنزيل : يهرعون اليه » والهرع مجهولا — فهو مهرع : يرعد من غضب او ضعف او خوف» . وظاهر كلامه انه يريد غير مبني للمجهول ايضاً ٩٨/٣ (الهرع) .

(٣) اي ندموا ، فهو كناية عن الندم .

(٤) : جومسكي ، البنى النحوية ص ١٠٩ .

مستقلة ، وإنها ليست منحولة عن تلك الأولى الأصلية ، وربما لا نعدم من يذهب إن هذه الوجهة من الباحثين العرب المعاصرين . كما ذهب أحد اللغويين المعاصرين وهو الدكتور مصطفى جواد إلى إنكار الصلة التحويلية بين صيغتي (فَعَلَ) و (انْفَعَلَ) ، التي عرفت في الاصطلاح الصرفي باسم (المطاوعة) ، إذ كان يرى ان المطاوعة خرافة ، وان الصيغة الثانية صيغة مستقلة منفردة لا علاقة لها بالاولى ، وليست مأخوذة منها (١) . وهو رأي له وجاهته يؤيده ما ذكره سيبويه(٢)من ان (انْفَعَلَ) كثيراً ما يستعمل لغير المطاوعة .

(٢)
مفهوم الدلالة في العربية وأنواعها :

أصل (الدلالة) في العربية حسي ، يراد به الاهتداء إلى الطريق ، فيقال : دله الطريق ، وهو دليلُ المفازة ، وهم أدلاؤنا ، وأدللتُ الطريق : أي اهتديتُ اليه (٣) . ثم استعمل مجازاً للدلالة على الهداية المعنوية ، سواء أكانت عامة كقولنا : دللتُ أخي على الصواب ، أم شرعية كالدلالة على الايمان في قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله ...) [الصف : ١٠ – ١١] .

وقد التفت قدامى اللغويين إلى الدلالة في العربية ، وإلى العناصر المكونة لها ، فذكر أبو بكر الباقلاني(٤) (ت ٤٠٣ هـ) : الدال ، والمدلول والمستدل ، وبين ما هية كل منها ، فذكر ان « الدال : هو ناصب الدليل »

---

(١) مصطفى جواد : المباحث اللغوية في العراق ص ١٥ .
(٢) الكتاب ٤/٧٦ – ٧٧ .
(٣) ابن فارس : مقاييس اللغة ٢/٢٥٩ (دل) ، والزمخشري : اساس البلاغة ١١٣ (دل) . وينظر : الفاظ العبادات في القرآن الكريم : اكرم احمد ، رسالة ماجستير سنة ١٩٩٠م باشرافنا – مخطوطة –
(٤) الانصاف فيما يجب اعتقاده ص ١٥ .

وان « المدلول : ما نُصب له الدليل » ، وان « المستدل : الناظر في الدليل واستدلاله : نظره في الدليل وطلبه به علم ما غاب عنه » .

وأشار الراغب الأصفهاني(١) (ت ٤٢٥ هـ) إلى (الدلالة) وحدّها بأنها « ما يُتوصّل به إلى معرفة الشيء ، كدلالة الألفاظ على المعنى ، والإشارات والرموز الكتابية والعقود في الحساب » . وبذلك وضع لها مفهوماً عاماً شاملاً لا يقف عند حدود اللغة المنطوقة أو المكتوبة ، بل يتجاوزها إلى ما عرف لدى المحدثين من علماء اللغة بـ (العلامات) أو (الاشارات) ، فاللغة مثلاً لدى فرديناند دي سوسور (٢) « نظام من الاشارات » System of signs التي تعبر عن الأفكار ، ويمكن تشبيه هذا النظام بنظام الكتابة « أو الالفباء المستخدمة عند فاقدي السمع والنطق ، أو الطقوس الرمزية ، أو الصيغ المهذبة أو العلامات العسكرية ، أو غيرها من الأنظمة ، ولكنه أهمها جميعاً » .

فهذه التي عددها سوسور كلها دوال ، وان اختلفت ما هيتها في كيفية الدلالة . وكذلك الحال في ما أدركه اللغويون العرب القدامى ، كالذي ذكرناه آنفاً في نص الراغب .

وحد الشريف الجرجاني(٣) (ت ٨١٦ هـ)الدلالة بأنها « كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر ، والشيء الأول هو الدال ، والثاني هو المدلول » .

وقد اتجهت عناية (الأصوليين) العرب القدامى إلى البحث الدلالي فتعمقوا فيه ، وأضافوا اليه ألواناً من السبر والتقسيم ، فأغنوا علم الدلالة بكثير من المصطلحات التي تدل على حذق ووعي . فمن ذلك إدراكهم لوظيفة اللغة في المجتمع ، وهي ان مهمتها (التوصيل) ، ولذلك أشاروا إلى العلاقة بين المتحدث والسامع ، أو صاحب النص والمتلقي له ، فدار أغلب بحثهم على

---

(١) مفردات الفاظ القرآن ص ١٧٣ (دل) ، بتحقيق نديم مرعشلي ، دار الكتاب العربي – القاهرة ١٩٧٢م .

٢) علم اللغة العام ص ٣٤ .ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز ، مراجعة د. مالك يوسف المطلبي دار آفاق عربية .

٣) التعريفات ص ٦١ . وينظر : اكرم احمد : الفاظ العبادات في القرآن الكريم ص ٢.

الأرض(١). ومن الدلالة العرفية اختصاص « المتكلم » بالعالم في الجدل العقيدي ، مع أنه في الأصل عام في كل قائل(٢).

وقد تكون الدلالة العرفية مجازاً منقلباً إلى حقيقة بعرف الاستعمال . مثل لفظة (الغائط) ، التي كانت في الوضع اللغوي للمطمئن من الأرض ، ثم صارت – تجوزاً – لقضاء الحاجة ، ثم عادت حقيقة للمعنى الأخير بعرف الاستعمال ، بعد ان تنوسي معناها في أصل الوضع ، وصار المعنى الجديد هو المتبادر عند الاطلاق(٣). وعليه قوله تعالى : (أو جاء أحد منكم من الغائط) [النساء : ٤٣] .

(هـ) الدلالة الشرعية (الاسلامية) :

وهي التي حدثت بعد ظهور الاسلام ونزول القرآن ، وتعني اكتساب الفاظ قديمة في لغة العرب ، دلالات جديدة ، أكسبها اياها الدين الجديد ، كالصلاة ، والايمان ، والكفر ، والنفاق ، والفسوق . والتيمم ، وما اليها. ولذلك عرفها أبو هلال العسكري(٤)(ت ٣٩٥ هـ) بأنها : « ما نقل عن أصله في اللغة ، فسمي به فعل» أو حكم حدث في الشرع ، وضرب له مثلاً الألفاظ التي ذكرناها آنفاً .

(و) الدلالة الكلامية والفلسفية والمنطقية

وهي من ضروب الدلالة العرفية ، إلا أنها حدثت بعد ظهور الاسلام ، وما صحبه في مراحل حضارية متتالية من ابداع فكري منبثق من صميم الثقافة العربية الاسلامية ، مثل علم الكلام ، وما رافقه من مصطلحات

(١) ابو هلال : الفروق في اللغة ص ٥٧ . وينظر : رافع عبدالله : منهج الراغب في كتابه : مفردات الفاظ القرآن رسالة ماجستير باشرافنا سنة ١٩٨٩ . والتلخيص للقزويني ص ٢٩٥ .

(٢) ينظر : الفاظ العبادات ٦ – ٧ .

(٣) ومنها (العذرات) فإنها في الأصل الساحات ، ثم صارت تطلق بمعنى آخر ، لأنهم كانوا يلقونها في الساحات .

(٤) الفروق في اللغة ص ٥٦ .

كثيرة ، كالقدم ، والحدوث ، والقدرة ، والاستطاعة ، والضرورة ، والمعارف، وما اليها . أو كالفلسفة والمنطق اللذين كانا نتيجة للترجمة والافادة من الثقافات الأخرى . فظهرت الفاظ ذات دلالات جديدة ، لم تعرفها العربية قبل هذا التأثر والأخذ ، ثم الابداع ، كالهيولي ، والدور ، والتسلسل ، وما اليها .

(ز) الدلالة السياقية :

وهي التي تستفاد من نسق الكلام وما جراه ، فهي في هذا تقابل ما يسميه المحدثون : (الدلالة المعجمية) ، أي دلالة اللفظة وهي في خارج السياق. ولأهمية هذه الدلالة ، ولانها إحدى جوانب هذا البحث ، فسنفصل عنها الحديث نوعاً ما في ما هو آت .

(ح) الدلالة الايحائية :

وهي نوع من الدلالة التي مصدرها ظل معنوي خارج عن المعنى الوضعي يلقيه اللفظ ، وإن لم يقطع الوشيجة بذلك المعنى الأصلي الوضعي . وسيرد الحديث عنها بشيء من التفصيل لأهميتها .

(ط) الدلالة الحالية :

وهي الدلالة الخارجة عن اللفظ وسياقه وايحائه . وقد عني بها القدامى عناية واضحة . وسنفصل الكلام عليها ، إذ هي جزء من بحثنا هذا .

(ي) الدلالة العرفانية :

وهي دلالة خاصة نشأت في نطاق التحليل الصوفي والعرفاني والاشاري للنصوص الدينية ، وطريقة فهمها ، وذلك لكونه من مصاديق فهم النص بعامل خارجي .

(ك) الدلالات : المطابقية ، والتضمنية ، والالتزامية

وهي من الدلالات المهمة التي أبدعها الأصوليون(١) ، ودار جانب من بحثهم الدلالي عليها .

---

(١) ينظر : المستصفى من علم الأصول ، للغزالي ١/٣٠

(٣)

دلالة السياق اللفظي في البنية العربية

يراد بالسياق اللفظي في الاصطلاح اللغوي نسق الكلام وما جراه ؛ إذ ترتبط الكلمات في السياق بعلاقاتها بما قبلها وما بعدها «(١)، فهو إذن : ما يصاحب اللفظ مما يساعد على توضيح المعنى »(٢) من ألفاظ ، سواء تقدمته أو تأخرت عنه ، أو اكتنفته من جانبيه . ومن هنا فان للسياق دوراً كبيراً في الكشف عن دلالة الألفاظ والتراكيب ، وهي في نسقها ونصها ، أي في صورتها التشكيلية لا في صورتها المعجمية ، ذلك ان للألفاظ دلالتين بحسب ما انتهى اليه الدرس الدلالي الحديث :

احداهما : معجمية ، تقوم على دلالة اللفظة وهي خارج النص .

والأخرى : دلالة سياقية ، يعينها السياق ويحددها ، فيخلصها — غالباً — من اشتراك الدلالات الأخرى التي لها . ولا يمكن ان يفهم المراد منها إلاوهي في نطاق سياق . وفي هذا يقول جون لاينز :

« ينظر الناس في أغلب الأحيان إلى الكلمات ، وكأن لكل كلمة كياناً مستقلاً . منفصلاً ولكن... لا يمكن فهم أية كلمة على نحو تام ، بمعزل عن الكلمات الأخرى ذات الصلة بها ، والتي تحدد معناها ».وشبه العلاقة القائمة بين الألفاظ في النص بـ « نسيج العنكبوت الواسع المتعدد الأبعاد ،يمثل كل خيط فيه احدى هذه العلاقات وتمثل كل عقدة فيه وحدة معجمية مختلفة «(٣) . وانتهى إلى القول : غالباً ما يستحيل إعطاءُ معنى كلمةً دون وضعها في نص »(٤) . وهذا الذي بينه هذا اللغوي الشهير صحيح ،

(١) د. تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ص ٢٣٣ ، دار الثقافة — الدار البيضاء — المغرب ١٩٧٩م .

(٢) د. محمد احمد ابو الفرج : المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث ص ١١٦، دار النهضة العربية — القاهرة ١٩٦٦م .

(٣) و (٤) جون لاينز : اللغة والمعنى والسياق ص ٨٣ .

ذلك ان كثيراً من الألفاظ لا يمكن تحديد دلالتها ما لم تتشح بوشاح السياق، وخاصة (الألفاظ المشتركة) ، وهي التي تشتمل على معنيين أو أكثر ، والألفاظ المتضادة المعنى ، وهي التي يكون لكل منها معنيان مختلفان اختلاف تضاد لا اختلاف تغاير ، وبذا تفترق عن الألفاظ المشتركة من حيث ان الاختلاف في هذه اختلاف تغاير لا اختلاف تضاد . ثم هناك التقابل اللفظي الذي يعد وسيلة من وسائل فهم الألفاظ وتحديد دلالتها وهي في النص .

فهذه الألفاظ لا يعرف المراد منها بدقة وتحديد — غالباً — إلا بقرينة . وهذه القرينة قد تكون لفظية : سياقية أو غير سياقية ، وللسياقية في هذا الأولوية في الفهم والتحديد ؛ لأنها تؤلف مع اللفظ وحدة واحدة من العلاقات الدلالية .

ومعنى هذا ان اللفظ المشترك لابد أن يكون له في كل مقام ومقال معنى واحد من بين سائر معانيه المعجمية التي دلت عليها نصوص اللغة المختلفة المتعددة .وان هذا المعنى يختلف بحسب الاستعمالات المتعددة لذلك اللفظ ، ويعرف — كما أشرنا آنفاً — بقرينة من القرائن الثلاث المعوّل عليها في العربية ، وإحداها وأهمها : (السياق اللفظي) Verbal context (١) ثم هناك قرينتان أخريان هما : (القرينة الحالية) أو (السياق الحالي)، وهو نفسه (السياق الاجتماعي) الذي عني به اللغوي الانكليزي J.R.Firth (فيرث) وسماه : Context of Situation ، وأراد به : دراسة الكلام في المحيط الذي يقع فيه »(٢) . وأما (القرينة العقلية) . فلها دورها في فهم نصوص في العربية كما سنرى .

وعلى هذا فان (السياق) يخلص اللفظة من ركامها الدلالي عبر التأريخ، وينتهي بها إلى (وحدة دلالية) ، ان صح التعبير ، فكأنه بهذا ينقلها من

(١) ينظر كتابنا : فقه اللغة العربية ص ١٤٣ .
(٢) د. محمد احمد ابو الفرج : المعاجم اللغوية ص ١٢١ .

مرحلة التطورية إلى مرحلة التزامنية . وفي هذا يقول فندرس(١):
« ويخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها ، وهو الذي يخلق لها قيمة حضورية » .

وإذا كانت (المعاني المعجمية) متعددة — كما أشرنا سالفاً — ، فان المعاني السياقية — كما يراها الباحثون في اللغة — محددة . ولاشك في أننا نجد في البيان الأعلى ، القرآن الكريم ، أفضل ما نطمح اليه من صدق التمثيل ودقته للسياق بأنواعه الثلاثة التي ذكرنا : اللفظي ، والحالي ، والعقلي ؛ إذ ان القرآن فضلاً عن كونه كتاب الشريعة والعقيدة في الاسلام ، فهو كذلك — كما سماه أمين الخولي(٢) بحق — : « كتاب العربية الأكبر » .

ولنضرب لذلك عدداً من الأمثلة منه : إن لفظة (الخير) من الألفاظ المشتركة ، أو كما يسمى أيضاً : من (المشترك اللفظي)(٣) ، يرد بثلاث دلالات : احداها عامة ، يراد به مطلق الخير ، وهو المقابل للشر ، فيكون « مرغوباً به بكل حال وعند كل أحد »(٤)، كما في قوله تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير) [آل عمران : ١٠٤] . فالمراد بالخير هنا : كل ما فيه صلاح المجتمع من دون تحديده بشيء من الأشياء . ومثله (الخير) في قوله : [والصلحُ خيرٌ] [النساء : ١٢٨] ، الذي علق عليه القرطبي (٥) (ت ٦٧١ هـ) بقوله : « والخير لفظ عام يقتضي ان الصلح الحقيقي الذي تسكن اليه النفوس ، ويزول به الخلاف خير على الاطلاق » .

وأما الدلالة الثانية فهي خاصة ، يراد بها خصوص المال ، من حيث ان المال أحد مصاديق الخير ، وفرد من أفراده » وهذا في القرآن منه كثير ،

---

(١) اللغة ص ٤٣ ، وينظر : د. علي زوين : منهج البحث في اللغة ص ٩٤ .
(٢) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب ص ٣٠٢ ، دار المعرفة — القاهرة ط ١ سنة ١٩٦١م .
(٣) سمي بذلك لاشتراك معنيين او اكثر في لفظ واحد .
(٤) الراغب : مفردات الفاظ القرآن ص ١٦٣ (خير) .
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٤٠٦/٥ .

كالذي في قوله تعالى : « وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون» (البقرة : ٢٧٢) ، والتنكير هنا يشعرنا بهذه الخصوصية .

وأما الدلالة الثالثة ، فهي أخص من الثانية ؛ إذ يراد بها خصوص مال الإرث ، وهو تركة الميت ، كما في الآية الكريمة : « إن تركَ خيراً الوصية للوالدين والأقربين »((البقرة : ١٨٠).

وهنا نلحظ ان الدلالة الأولى العامة المطلقة للخير ، اكتُسبت من دلالة اللفظة نفسها على العموم بدخول (ال) عليها ، وخلو التركيب مما يقيدها بشيء معين . وهذا هو الأصل في الدلالة التي تفيد (العموم) ، أن تبقى على عمومها حتى يأتي المخصص الذي يخرج لفظها من عمومه إلى معنى محدد(١).

فاذا تأملنا في لفظة (الخير) في النصين : الثاني والثالث ، الفيناها قد خصصت بالمال — على درجتين — كما أسلفنا بقرينة سياقية لفظية ، هي في الأولى لفظة (أنفق) ، إذ إن الإنفاق يتعلق بالمال في العربية . وقد ورد في عدة سياقات مع المال ، كما في قوله تعالى : « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله» (البقرة : ٢٦٢) ، وقوله : « كالذي ينفق ماله رئاء الناس» (البقرة : ٢٦٤) ، ولذلك لم يفت القرطبي لمح القرينة السياقية الدالة على تحديد معنى الخير بالمال في الآية ، فقال : (الخير في هذه الآية المال ؛ لانه اقترن بذكر الانفاق . فهذه القرينة تدل على أنه المال »(٢) .

أما في النص الثالث ، فقد خصص (الخير)بمال الارث بقرينة سياقية أسميها (مزدوجة) أو (ثنائية) ، الأولى متقدمة ، وهي قوله قبل ذلك مباشرة في الآية نفسها : « كُتبَ عليكم إذا حضر أحدكم الموت » ، والثانية متأخرة ، وهي قوله بعدها مباشرة أيضاً : « الوصية للوالدين والأقربين » ، ولا تكون الوصية لهما إلا عند قرب الوفاة ، فاكتنف لفظة (الخير) — كما هو واضح — قرينتان سياقيتان لتخصصاها بمال الإرث وحده .

(١) هذا هو الصحيح لدى الأصوليين استصحاباً منهم للاصل .
(٢) الجامع لاحكام القرآن ٣٣٩/٣ .

وهناك دلالة أخرى صحبت استعمال لفظ (الخير) في القرآن ، أنبأ عنها السياق في مواضعه المتعددة والمتباينة في النص القرآني ، وهي (الدلالة الايحائية) نرجىء الحديث عنها إلى موضعها .

وبهذا نجد ان دلالة السياق حددت المراد من هذا اللفظ المشترك (الخير) في النص القرآني . وهذا يشعرنا بأهميتها في علم الدلالة العربي ، وخاصة في تحديد اللفظ المطلق والعام . ولذا قال الزركشي(١)(ت ٧٩٤ هـ) :
«دلالة السياق ، فانها ترشد إلى تبيين المجمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وتنوع الدلالة ، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم » .

ثم نظر له بقوله تعالى في مخاطبة الكافر المتكبر المتعالي : « ذق إنك أنت العزيز الكريم) (الدخان : ٤٩) ، وبين أنك « تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير » . يريد بذلك : ما تقدمه في السياق ، وهو قوله تعالى : « ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم » (الدخان : ٤٧) . فأخرج هذا السياق لفظ (العزيز الكريم) من دلالته الظاهرة المتبادرة : أي : ذو العزة والمنعة والكرامة ، إلى دلالة أخرى مضادة لها ، وهي المهين الحقير ، كما وصف الزركشي ، أو قل : أخرج اللفظ بتركيبه (الوصفي) : (العزيز الكريم) من الحقيقة إلى ضرب من التجوز الاستعاري . وهذا الضرب من الاستعارة سماه البلاغيون :(الاستعارة العنادية) وهي التي تستعمل في ضد أو نقيض؛ إذ يستعار فيها الشيء لضده (٢) ، ونظيره : (فبشرهم بعذاب اليم) (آل عمران : ٢١)،والمراد : « ضعه موضع البشارة»(٣)، إذ ليس العذاب من البشارة في شيء، وانما استعير لهذه الدلالة الضدية إزراء بهؤلاء وتهكماً

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/٢٠٠ .
(٢) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ٢/٤٦ ، والقزويني : التلخيص ص ٣٠٩ .
(٣) الطوسي : التبيان في تفسير القرآن ٣/٢١ ، النجف ١٩٥٧م ، وتنظر : رسالتنا للدكتوراه : منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم ص ٣٥٩ – مخطوطة – .

بهم ، كما تُهكّمَ بالمتكبر المغتر بنفسه وماله وجاهه ...فقيل له (إنك أنت العزيز الكريم) في النص الذي ذكرناه آنفاً .

إن (العزيز)و (الكريم) في سياقات أخرى لهما دلالات مباينة تباين الضد من دلالتهما في النص الذي سبق ، إذ هما يدلان في غير موضع من القرآن على معاني المَنَعَة ، والغلبة والقوة الحقة(١) ، وذلك حين تسند (العزة) إلى الخالق سبحانه ، كما في قوله تعالى : » فاعلموا أن الله عزيز حكيم » (البقرة : ٢٠٩) أو يوصف القرآن بهذه الصفة لما فيه من الخير فقال تعالى : (إنه لكتابٌ عزيز) (فصلت : ٤١) ، وأما (كريم) فهي كذلك ذات دلالة سامية ، إذ ترد صفة لله سبحانه لتدل على « إحسانه وانعامه المتظاهر» (٢) ، على خلقه في كل شيء، كما في قوله« إن ربي غني كريم» (النمل : ٤٠) ، كما وردت صفة لموسى عليه السلام في قوله تعالى « وجاءهم رسول كريم » (الدخان : ١٧) ، كما وُصفَ بها الملائكة(٣)، والرزق(٤) ، والعرش الالهي(٥)، والأجر (الثواب)(٦) . وغير ذلك . فكل سياقات هذه اللفظة (كريم) تدل على اتسام دلالتها بالسموّ ، ولا نجد في أي نص دلالة تشعر بـ (انحطاط) ، إلا ما ذكرناه آنفاً من دلالتها الضدية على امتحان الكافر المتكبر المغتر . في حين ان كل سياقاتها في غير هذا السياق تشعر بأن الكريم لفظ يحمد به من يوصف من الناس ، ولذا قال الراغب (٧) : وإذا وصف به الانسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه ... والكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة ... وكل شيء شَرُفَ في بابه فانه يوصف بالكرم » . ثم احتج لذلك بعدد من الآيات

---

(١) مفردات الفاظ القرآن ص ٣٤٤ (عز) .
(٢) نفسه ٤٤٥ - ٤٤٦ (كرم) .
(٣) يوسف : ٣١ .
(٤) النور : ٢٦ .
(٥) المؤمنون : ١١٦ .
(٦) الحديد : ١٨ .
(٧) مفردات الفاظ القرآن ص ٤٤٦ (كرم) .

الدالة على هذه الدلالة السامية في استعمال القرآن لها ، من مثل قوله تعالى : « وأنبتنا فيها من كل زوج كريم » (الشعراء :٧)، «وزروع ومقام كريم» (الدخان : ٢٦) ، (انه لقرآن كريم)(الواقعة : ٧٧) ، (وقل لهما قولاً كريماً) (الاسراء : ٢٣).

لقد رأينا في ما تقدم ان السياق يفسر اللفظة ،ويحدد دلالتها في نصوص القرآن ، وأنه كما يكون متقدماً على اللفظة التي يفسرها ، أو متأخراً عنها ، يكون كذلك في مواضع مكتنفاً لها من جانبيها.فهذه صورة من صور السياق في العربية ، سأطلق عليه اسم : (السياق البسيط) .

وثمة سياق آخر ، يباين هذا السياق في صورته ، رأيت ان اسميه : (السياق المركب) ، ووجه تسميته بذلك ، ووصفه بالتركيب ، أنه (السياق المفسر) فيه ليس مستقلاً بالتفسير ومنفرداً به ، بل هو محتاج إلى نص آخر يوضحه ويدل عليه . ومن هنا ارتبط ارتباطاً دلالياً بذلك النص ، الذي يكون في عدة مواضع خارجاً من السياق المفسر هذا ، وبعيداً عنه.إذ قد يكون في نفس السورة ، التي تمثل في القرآن الكريم وحدة ذات موضوع عام واحد — ولكن بينه وبين ذلك السياق المفسر فاصل كثير من الآيات ، سواء تقدم أو تأخر . وقد يكون هذا النص الذي يحتاجه السياق المفسر في سورة أخرى، ليس من الضروري أن تكون مجاورة في ترتيب القرآن (التوقيفي) (٦) ، لتلك السورة التي تضم السياق المفسر ، بل قد يكون بينهما سورة كما سنرى

ونستطيع ان نتبين النمط الأول ، المركب الذي في سورة واحدة في تفسير الامام جعفر الصادق (ت ١٤٨ هـ) لآية (يوسف : ١٠٠) :

(وخروا له سجداً) ، فقد روي أنه كان يذهب في تفسير السجود ورد الضمير الذي في (له) ، إلى أنه سجود ليوسف « إعظاماً له وشكراً لله » ، أو قل : إن هذا السجود جمع بين سجود الاحترام والتبجيل المتعارف عليه

(١) الترتيب التوقيفي : هو ترتيبه في المصحف . وهو يقابل ترتيب النزول او الترتيب التاريخي .

لدى أهل مصر إذ ذاك ، حين يحيون الأمراء والملوك ، وبين سجود الشكر لله على اجتماع شمل الأسرة بعد تشتت . واستدل الامام جعفر على ذلك بما ورد في الآية بعد ذلك مباشرة على لسان يوسف ، وهو قوله : (يا أبت هـذا تأويل رؤياي قد جعلها ربي حقا) (١) .

فهذا الوجه أشبه بالسياق ، وقد فسره ما ورد في أول قصة يوسف ، وهو قول يوسف بعد الرؤيا : (إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمـر رأيتهم لي ساجدين) [يوسف : ٤] . فبين في أول القصة أنه رآهم ساجدين له ، ثم بين في آخرها عند سجود أبويه وإخوته له ، ان هذا تأويل رؤياه قد صار حقيقة وواقعاً ، بعد ان كان رموزاً وحلماً . وبذلك فُسر هذا النص ، بالنص الذي تصدر السورة لأنه بيّن ما هية هذا السجود ، من أنه سجود أبَوَيْ يوسف وإخوته له . كما ان نص السجود الأخير فك الرموز التي في نص السجود الأول ، أي : الشمس والقمر ، والكواكب الأحد عشر ، إذ اتضح أنهم : أمه وأبوه وإخوته .

أما النمط الثاني الذي ابتعد فيه النص الموضح للسياق المفسر أكثر من ابتعاد النص الذي ذكرناه آنفاً ، بأن صار في صورة أخرى وليس في السورة نفسها ، فيتجلى في سورتي (الحاقة) و (القارعة) ، إذ يتبين منهما ان لفظة

الحاقة = القارعة .

و القارعة = يوم القيامة .

وإذن الحاقة = يوم القيامة .

أو لنقل : أ = ب

و ب = جـ

∴ أ = جـ

على حين ان المعادلة في النمط الأول هي الآتي :

(١) تفسير العياشي ١٩٧/٢ .

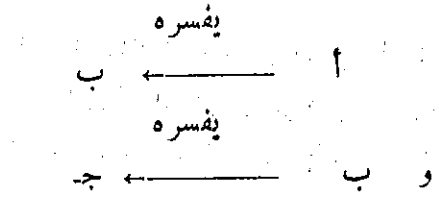

يفسره

أ ←——— ب

يفسره

و ب ←——— جـ

غير ان حـ يتقدم في النص على كل من أ و ب ، فتكون المعادلة .

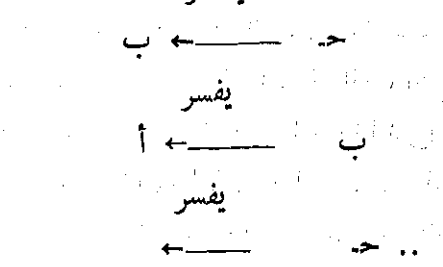

يفسّر

حـ ←——— ب

يفسر

ب ←——— أ

يفسر

.. حـ ←———

فاذا قرأنا السورة الأولى ، (سورة الحاقة) ، وجدنا مطلعها : (الحاقة * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة * كذبت ثمود وعاد بالقارعة) * فأنت ترى هنا من سياق هذه الآيات ايماءة إلى ان (الحاقة) هي (القارعة) ، ولكنك لا تستطيع ان تتبين دلالة القارعة إلا بعد الرجوع إلى السورة التي سميت باسمها ،فتجد السياق فيها قد فسر هذه اللفظة بوضوح ،إذ دل على ان القارعة هي (يوم القيامة) ، عن طريق المشهد الذي ساق لبيانها وتصويرها ،فهو من مشاهد الهول في ذلك اليوم *حيث الانقلاب الكوني في الطبيعة الأرضية والسماوية ، ذلك أنه تعالى قال :

(القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما القارعة * يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش ...) .

فاذا فُسرت القارعة بيوم القيامة ، وكانت الحاقة هي القارعة —كما رأينا في نص سورة الحاقة — تبين بطريقة رياضية منطقية ان الحاقة هي يوم القيامة . وهذا الارتباط المتتالي في الدلالات بين ثلاثة عناصر هو الذي سوّغ

لي تسميته بـ (السياق المركب)في مقابل ما تقدم مما سميته(السياق البسيط). وليست التسميتان غريبتين على أية حال عن المصطلح اللغوي ؛ إذ لدينا في وصف الجمل الاسمية ، ما يطلق عليه (الجملة البسيطة) و (الجملة المركبة)(١) .

ولسنا هنا في هذه العجالة بقادرين على ان نبين كل ما يتعلق بأثر السياق وقيمته الدلالية في بيان معاني المفردات والتراكيب والتعابير . ولكننا نود أن نؤكد ثانية ان قدامى اللغويين العرب قد عنوا به عناية كبيرة جداً ،وأنهم سبقوا اللغويين المحدثين في اعتباره وأدراك قيمته ، بل إنهم عملوا ما هو جدير بأكبارهم ،إذ أغنوا (علم الدلالة) العربي بما يدل على براعتهم ودقة حسهم اللغوي ، فكان الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، وهو أديب وناقد ولغوي ، يفرق بين طائفة من الألفاظ التي يظن ان بينها (ترادفاً تاماً) أو كما سماه جون لاينز(٢): (ترادفاً كلياً) ،من مثل (الجوع) و (المسغبة) ، ولايراها الجاحظ تامة الدلالة ، بل يرى ان الجوع يرد في سياق العقاب ، أو الفقر المدقع والعجز الظاهر» (٣) ، وليس كذلك السغب . وكذلك (المطر) و(الغيث) ، فالأول لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام ،والعامة وأكثر الخاصة – يقول الجاحظ – لايفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث»(٤).

ولعل الراغب الاصفهاني من أبرع اللغويين القدامى في توظيف السياق اللفظي بدقة وذكاء ، حتى إن الزركشي وصفه بأنه : « يتصيد المعاني من السياق . ومعجمه الشهير : (مفردات الفاظ القرآن) يؤكد ذلك في كثير من المواضع .

(١) ينظر : برجستراسر : التطور النحوي ص ١٣٨
(٢) اللغة والمعنى والسياق ص ٥٥ .
(٣) و (٤) الجاحظ : البيان والتبيين ١/٢٠ ، بتحقيق عبدالسلام محمد هارون ، ط٣ ، مطبعة السعادة – القاهرة .
وينظر بحثنا : الجاحظ الناقد التفسيري ، مجلة المورد ، العدد ٤ لسنة ١٩٨٨م ص ٥٦.

السياق و دلالته الإيحائية :

الدلالة الإيحائية : هي الظل الذي يلقيه اللفظ في صورته الافرادية ، أو صورته التركيبية ، في نطاق السياق . ولذلك ترتبط هذه الدلالة — في ما نلحظ — ارتباطاً واضحاً بالسياق ، إذ أنها تترشح منه ، وتفاد منه ، من دون أن يدل عليها اللفظ صراحة .

فالقرآن الكريم يذكر — مثلاً — الإنفاق ، وهو العطاء والهبة المالية بلا عوض ولا منّ ولا رد .وهو سلوك مادي مالي ، يذكره القرآن في أحد المواضع ، في سياق عملين عباديين تقدماه ، وآخر تأخر عنه .فاللذان تقدماه مختلفان في الصورة والكيفية ،ومتفقان في الموضوع من حيث إن كلاً منهما عمل عبادي . فالأول منهما في السياق نفسي وهو (الصبر) ، والثاني منهما روحي وهو (الصلاة) . فهذا ما تقدم في السياق على (الانفاق) .

أما الذي تأخر عنه ، فهو عمل سلوكي خلقي ، هو دفع الشر بالخير ، ودفع السيئة بالحسنة .وقد جعل الله سبحانه لمن له مثل هذه الصفات السلوكية والنفسية والعملية ثواباً هو الجنة ، فقال في مقام الثناء عليهم :

(والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار) [الرعد : ٢٢] .

فيلحظ هنا أن القرآن جعل لصورة الانفاق وكيفيته وجهين :

أحدهما : خفي ، والآخر معلن ، فقال : (سراً وعلانية) ، معبراً عن ذلك بأسلوب (التقابل الدلالي) ، ومقدماً السر على العلن . فالذي يستشعر في هذا التعبير التقابلي الايحاء بأولوية وأفضلية إخفاء الانفاق ، على إظهاره ، بقرينة تقديم السر على الاعلان . وهو ما يتسق مع اخلاقيات الاسلام وحرصه على خلوص العمل الصالح لوجه الله ، لا الرياء . كما أنه يتسق مع ما ورد في السنة . فهو إذن (ايحاء) بأولوية اخفاء الصدقة على اظهارها .فضلاً عما ورد

في القرآن نفسه في موضع آخر وهو قوله تعالى : (ان تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) .

وهذا الايحاء يراد به تعليم المؤمنين هذا السلوك العبادي عن طريق هذه الأولوية التي أوحى بها السياق . وفي ذلك ما فيه من حفظ ماء وجه المتصدق عليه ، والنأي بالمتصدق نفسه عن الرياء والمباهاة . فهذه (دلالة ايحائية) استفيدت من تقديم لفظ على آخر في تركيب تقابلي كما رأينا .

فالدلالة الايحائية ، هي في الواقع (خفية) ؛ لأنها ليست صريحة في اللفظ ، إذ لا يدل عليها بالوضع اللغوي ، ولا بالدلالة الصوتية الظاهرة ، وان كان للصوت ايحاء وظل دلالي أيضاً ، وإنما يدل عليها اللفظ عن طريق الظل الذي يُلقيه .

ولا يتسع البحث لأكثر من هذا المثال فنكتفي به ، لبيان ما يشع به السياق ويشعر من دلالة تنترشح منه .

أما الايحاء في الدلالة الصوتية في العربية ، فهو من خصائصها ومميزاتها . وقد بلغ في القرآن الكريم الذروة . ولا يتسع البحث لبيان ذلك ، وانما نحيل القارىء إلى ما كتب عنه وهو كثير (١) .

(٥)

دلالة سياق الحال في البنية العربية :

يراد بـ (سياق الحال) : الأحوال والظروف والملابسات التي تصاحب النص وتحيط به عند النطق به أو كتابته إذ ان سياق الحال يشمل أنواع النشاط اللغوي جميعاً : كلاماً وكتابة » (٢) .

(١) كما في (التصوير الفني في القرآن) لسيد قطب ، ونظرية المعنى في النقد العربي لمصطفى ناصف . وبحثنا : الجرس والايقاع في تعبير القرآن ، والبنى والدلالات في لغة القصص القرآني لعماد عبد يحيى — رسالة دكتوراه — .

(٢) السعران : علم اللغة ، مقدمة للقارىء العربي ، ص ٣٣٨ ، دار المعارف — مصر ١٩٦٢م

وأول من استعمله من المحدثين عالم المجتمعات البشرية (الانثروبولوجي) البولندي : مالينوفسكي ، الذي أثر في كلتا المدرستين (الانثروبولوجيـة) واللغوية في انكلترا ،إذ كانت له نظرات قيمة تتعلق بدراسة « الكلام الحي» أو « اللغة المنطوقة » بوجه خاص . وقد أخذ منه اللغوي الانكليزي فيـرث J·R·Firth (سـياق الحال) مطلقاً عليه اسم Context of Situation الـذي ترجمه الباحثون العرب المعاصرون بـ (سياق الحال) و (الماجرى) و (المقام) و (الموقف) و (السياق الاجتماعي) (١) . وقد أراد فيرث بهذا المصطلح : « جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي أو للحال الكلامية » ومن هذه العناصر شخصية المتكلم والسامع وتكوينهما الثقافي ، ومن يشهد الكلام عند النطق به ، ان وجد ، والعوامل والظواهر الاجتماعية ، كالجو ، والوضع النفسي والاجتماعي والسياسي (٢)...وما إلى ذلك ، مما يصحب النص ويلابسه من أمور .

فهي إذن مجموعة العوامل والعناصر المحيطة بالنص من خارجه ، التي تعين على فهمه وتفسيره ، ذلك أن « المعنى المعجمي ليس كل شيء في ادراك معنى الكلام . فثمة عناصر (غير لغوية)ذات دخل كبير في تحديد المعنى ، بل هي جزء من أجزاء معنى الكلام من ملابسات وظروف ذات صلة »(٣).

ويبدو لي ان . من الأفضل التفريق بين (سياق الحال) و (السياق الاجتماعي) في الترجمة العربية للمصطلح الأجنبي وتطبيقاته العملية على النصوص ؛ إذ يبدوان (سياق الحال)موقف مؤقت يتصف بالآنية عند النطق بالكلام أو كتابته ، على حين ان (السياق الاجتماعي) يتصف بالثبات والدوام تقريباً ، فهو سياق سائد . وسيتضح لنا ذلك في ما نورده من أمثلة .

وهنا يرد سؤال : هل ان ما التفت اليه اللغويون الغربيون المحدثون هم

(١) ينظر علم اللغة للسعران ، والمعاجم اللغوية لمحمد احمد ابو الفرج ، واضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة لنايف خرما ، وغيرها .

(٢) علم اللغة للسعران ص ٣٣٩ .

(٣) نفسه ٢٨٨ .

مبتكروه ، وأنه ليس له جذور وأصول في كلام اللغويين العرب القدامى ، أم هم مسبوقون به ؟ . والجواب : هو ان اللغويين والبلاغيين والمفسرين والأصوليين العرب قد التفتوا إلى هذا النوع من الدليل اللغوي ، فسموه : (الحال)أو(المقام)(١)،واكتفوا في كثير من الأحيان بوصفه عن تسميته. ولعل من أقدم من التفت اليه ونبه عليه سيبويه (ت ١٨٠ هـ)، امام النحاة ، إذ ربط فهم النص وما يطرأ عليه من ظواهر نحوية ،بما يحيط به من أحوال وما جريات . فهو يذكر مثلاً أنه لو قال قائل :(مكة ورب الكعبة) ، في وقت يرى فيه رجلاً متوجهاً وجهة الحاج ، وله هيئة من يقصد الحج . فان هذه الحال تشعر بأنه أضمر فعلاً هو : (يريد)(٢) ، ولو لا هذه الحال لالتبس الكلام ، ولم يعرف مراد المتكلم ، إذ قد يظن ظان ان هذا ليس خبراً ، بل قد يكون طلباً وحثاً لشخص على الذهاب إلى مكة للحج . وفرق – لاشك – بين الكلامين من الناحية الدلالية .

ولعل أبْيَنَ منه ،ما بيّنه من فارق دلالي بين موقفين وحالين يقال فيهما : (القرطاسَ والله) الأول يقوله شخص رأى رجلاً يسدد سهماً جهة القرطاس، فيقول هذا الكلام ، ويقصد به: ان هذا الرجل يصيب القرطاس . والثاني يقوله بعد وقع السهم في القرطاس، ويقصد : أنه أصاب القرطاس (٣) .

والحق هو أن كثيراً من النصوص العربية ،لا يسهل فهمها على وجهها ، وادراك مرامي القائلين بها ، ما لم يلحظ سياقها الاجتماعي ، أو لنقُل : الحالي ، والا كان فهم تلك النصوص ، اما مخطئاً أو ناقصاً مبتسراً .

ولعل خير مثال يوضح هذه الحقيقة من الشعر العربي القيم ، قول أبي الطيب المتنبي في لاميته المشهورة(٤) :

(١) فقالوا عبارتهم المشهورة : (لكل مقام مقال) ، معبرين بذلك عن الحال .
(٢) سيبويه : الكتاب ٢٥٧/١ ، وينظر : مكي نومان مظلوم ، النحو في شروح ديوان الحماسة لأبي تمام ، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الآداب في الموصل سنة ١٩٩٠م – مخطوطة – ص ٦٨ .
(٣) الكتاب ٢٥٧/١ والنحو في شروح ديوان الحماسة ؛ المكان نفسه .
(٤) ديوان المتنبي بشرح اليازجي ٥٢٥/٢ .

لاخيلَ عندك تهديها ولا مالُ فليُسعدُ النطق إن لم تُسعد الحالُ

فاننا إذا جردناه عن ظرفه الذي قيل فيه ، ومناسبته ، وحاله ، لم نهتد إلى قصده بقوله (عندك) ، إذ أن ظاهر هذا التركيب الاضافي قد انتهى بكشاف المخاطب ، فلو فهمناه مستبعداً عن ظرفه ، معتمدين على دلالته اللغوية وحدها ، لاقتضى منا القول : ان الشاعر الكبير يخاطب شخصاً ما بأنه ليس لديه ما يهديه إلى الشاعر أو إلى غيره من طلاب الصلات والمال من الشعراء وغيرهم من الناس . غير اننا حين نتعرف على مناسبة النص ، نعلم ان الشاعر إنما يخاطب نفسه ، فيجرد منها شخصاً يخاطب به ذاته ، فهو ضرب من (التجريد الفني) الذي يضارع ما يسميه المحدثون : « المنولوج » ، وهو الكلام النفسي الصامت ، أو حديث النفس ، كما يسميه الفقهاء .

ويتلخص ظرف النص الاجتماعي أو سياق الحال فيه ، بأن أبا شجاع فاتكاً الأسدي كان كثير الاعجاب بشعر المتنبي وشخصه ، فأهداه الف دينار فلم يجد الشاعر ما يقابل هذه الهدية السنية إلا هدية القول ، قصيدة في مدح أبي شجاع . ولكي يسوغ ذلك ، افتتح القصيدة بهذا البيت الذي سلك فيه اسلوب التجريد ، قال اليازجي(١) : « يخاطب نفسه ، يقول ليس عندك خيل ولا مال تهديهما إلى الممدوح في مقابلة ما أهداه اليك ، فليعنك النطق على مكافأته بالمدح ، إن لم تُعنك الحال على مكافأته بالهدايا » .

وهكذا نجد أن ظرف الشاعر سوّغ له هذا الأسلوب ، وصَرَفه عن الصيغة المعتادة : (لاخيل عنديَ أُهديها ولا مالُ) ، إذ لو قال ذلك لصحّ المعنى واستقام وزن البيت أيضاً ، من دون أي خلل عروضي ، غير أن استعمال أسلوب التجريد أوقعُ في نفس السامع ، الذي سيدرك بعد معرفة الملابسات أن الشاعر صار اثنين : أحدهما : ذاته الحقيقية ، والآخر ، ذات أخرى ناصحة موجهة ، هي الذات المجرّدة من هذه الذات الحقيقية ، التي جرّدت لتقرر حقيقة فقر الشاعر المادي لا القولي .

(١) العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب ٢/٥٢٥ .

فاذا انتقلنا الى النص القرآني الكريم ، ألفينا لسياق الحال أو السياق الاجتماعي دخلاً كبيراً في فهم معاني طائفة من نصوصه ، إذ بدون معرفة هذا السياق واستحضاره عند تفسيره ، يبقى المعنى عاماً مبهماً لامحصل وراءه — في أكثر من نص — إلا معناه العام الذي تدل عليه ألفاظه .

ولم يفت ذلك قدامى اللغويين وعلماء القرآن ، بل أولوه مايستحق من عناية في أكثر من صورة ، ومنها معرفة (أسباب نزول) (١) الآيات ، إذ أنهـــا دلائل من خارج النص القرآني ، تلقي أضواء كاشفة لمعانيه في كثير من الاحيان حتى أنها عُدّت من العلوم التي يجب أن يحيط بها المفسّر قبل أن يشرع في بيان معاني كتاب الله (٢). وهو المنهج الذي اعتمدته أيضاً في العصر الحديث (المدرسة الأدبية) في التفسير ، التي أرسى قواعدها الشيخ أمين الخولي ، ونبه على أهمية أسباب النزول في كتابه القيم : (مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب)(٣) في جملة مانبه عليه من ملابسات تتعلق بدراسة (ماحول القرآن) .

فلو أخذنا الآية الكريمة : (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) [البقرة : ١١٥] ، على ظاهرها ، وفهمناها بدلالة ألفاظها بمعزل عن ظروف وأحوال وملابسات نزولها ، لاقتضى ذلك أن المصلي لايجب عليه استقبال القبلة عند الصلاة ، بل له أن يصلي الى أية جهة شاء ؛ لأن البنية السطحية للآية تشعر بذلك في هذين التركيبين المتتاليين في نسق التعبير : (ولله المشرق والمغرب) و(فأينما تولوا فثم وجه الله) ، فاذا حللنا التركيب الأول ناظرين الى بنيته العميقة « deep structure » ، الفينا التعبير قد استغنى عن اسمين آخرين ، أو قل : جهتين أخريين غير المشرق والمغرب ، وهما الشمال والجنوب ، أكتفاء بإيراد هاتين الجهتين المشهورتين ، جرياً على أسلوب القرآن في الايجاز عند عدم

(١) ينظر : المعاجم اللغوية ص ٩٨ .
(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن ١/٢٢ وما بعدها .
(٣) ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

اللبس ، وجرياً على أسلوبه في مواضع أخرى . كقوله : (فلا أقسم بربّ المشارق والمغارب) [المعارج : ٤٠] ،وقوله: (ربّ المشرقين وربّ المغربين) [الرحمن : ١٧].فهو يذكر هاتين الجهتين مستغنياً بهما عن الجهات الأخرى مهما تعددت. واما تحليل التركيب الثاني: (فأينماتولّوا فثم وجه الله)،فيدل على أن الكلام هنا مؤلف من شرط وجواب ،وأنه يدل في لفظه على أن المصلي مخيّر في أن يتوجه في الصلاة الى أية جهة شاء .وهذا في الواقع خلاف ماعليه الحال والعمل لدى المسلمين.إذ يؤلف (الواقع العملي) في العبادات ضرباً من سياق الحال. كما أن (سبب نزول) الآية يؤلف صورة أخرى مهمة جداً هنا، لسياق الحال إذ نعلم من هذا السبب أن الآية نزلت حين كان النبي محمد(ص) على راحلته في طريقه من مكة الى المدينة (١)

أو بعبارة أخرى : إن دلالة اللفظ هنا لم تكن معبّرة وحدها ،أو مجردة عن ظروف النص وأحواله وملابساته ، عن حقيقة المعنى وواقع النص .إذ هي في ظاهرها تفيد العموم والاطلاق ، على حين أن سبب النزول يقيدها بحالة خاصة ومقام محدود ، هو عند عدم إمكان تعيين القبلة في السفر ، فللمصلي أن يتجه الى عدة جهات ، إن لم يكن لديه علم أو ظن غالب بجهة القبلة . قال الطبرسي (٢) : «(فأينما تولوا وجوهكم) : فحذف المفعول للعلم به ، فثمّ ، أي : هناك (وجه الله) ، وهو كناية عن القبلة ، إذ أن العرب تسمي القصد الذي تتوجه اليه وجهاً»

وبالمثل حمل السياق الاجتماعي أو الحالي كثيراً من المفسرين على أن يفسروا (الربّ) بعزيز مصر ، في قوله يوسف عليه السلام لامرأة العزيز حين راودته عن نفسه : (إنه ربي أحسن مثواي) [يوسف : ٢٣] ، بدلاً من إرجاعه — في التأويل الآخر— الى الله سبحانه . والمعنى : إنّ زوجك مالكي أحسن تربيتي وإكرامي فلا أخونه . وإنما لم يقل (إنه سيدي)،وقال (إنه ربي) لأنه

(١) الزركشي : البرهان ٢٧/١
(٢) مجمع البيان ٤٣٢/١ .

لم يشأ أن يقرّ له بالسيادة عليه، وإن أقرّ له بالتربية ، لما بينهما من الفارق في الدلالة الاجتماعية

فكأن هؤلاء المفسرين الذين حملوا (الربّ) على عزيز مصر ، إنما حملوه على معنى ملكيته ليوسف ؛ لما تقرّر في الواقع من ذلك ، فكان فهمهم لـــه وتأويلهم إياه من ملحظ السياق الاجتماعي والحالي ليُوسف عليه السلام . ولهذا قال الطبرسي (١) منبهاً على ذلك: «وإنما سمّاه رُبّاً لما كان ثبت عليه من الرق في الظاهر» .

على حين أن الذين حملوا اللفظ على البارىء سبحانه ، لم يبنوه على هذا السياق، بل بنوه على العقل وما يتصل بالموضوع من العقائد الدينية التي جعلتهم لايرون هذا الثناء من لدّن يوسف عليه السلام حقيقاً بالعزيز ، وإنما يرونـــه يليق بالله وحده من حيث إنه (ربّ العالمين)وربّ يوسف الذي أنقذه من الهلاك في البئر ، وكفّله هذا الرجل (العزيز) الذي آواه وأحسن مثواه .

وهنا تلتقي القرينتان (الحالية) و (العقلية) في فهم هذا التركيب : (إنه ربي)، في أن كلاً منهما خارجة عن النص ، وإن اختلفتا في الماهية

وإذا كان اللغويون المعاصرون قد نبهوا على (السياق الحالي) عنصراً دلالياً وقرينة لفهم الكلام المنطوق والمكتوب ، فإنهم في الواقع ليسوا مبتكرين له بل كانوا مسبوقين، إذ لانعدم في تراثنا اللغوي القديم لمح هذا الدليل واعتماده في فهم كثير من النصوص . والأمثلة التي تقدمت تثبت ذلك .وهناك غيرها كثير

غير أن الذي يثير العجب والإعجاب حقاً ، هو أن ماوصل اليه اللغوي الانكليزي الشهير (فيرث) . Firth وغيره ممن تأثر بمقولته ،من أن عبارة واحدة مثل (صباح الخير) ترد في الكلام بسياقات متعددة متباينة ، بعضها يدل على الرضى والاحترام وبعضها يدل على المعاتبة واللوم المرموز ،وقد

(١) مجمع البيان ٣٩/١٢ .

يدل على التهديد والتقريع الشديد ، وذلك يختلف باختلاف الحالة النفسية للمتكلم ، والعلاقات الاجتماعية بينه وبين من تلقى عليه التحية ، ومن هنا يكون المعنى المعجمي قاصراً عن توفيه هذه العبارة الكثيرة التداول حقها من التحديد الدلالي في سياقاتها الاجتماعية المختلفة التي أشرنا الى طائفة منها(١) وهذا عيب من عيوب معاجمنا العربية أيضاً ، على الرغم من أنها بلغت الذروة في ثروتها اللغوية ، وتنوّعها ، ومنهج مؤلفيها من حيث إحصاء الفصيح من الكلام وتدوينه ، وما الى ذلك من ميزات لاتنكر فيها .

نقول : إن ماوصل إليه اللغويون المحدثون مما وصفناه آنفاً ، كان قد نبّه عليه أحد قدامى اللغويين والنقاد العرب المبدعين ، وهو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) في كتابه : (الانتصار لنقل القرآن) الذي لخصه أحد أهل العلم بعنوان : (نكت الانتصار لنقل القرآن) ، فقد التفت الباقلاني الى تغاير دلالة التحية الاسلامية المعروفة : (السلام عليكم) بتغاير الملابسات والاجواء المحيطة بالمتكلم والمخاطب ، عند القاء هذه التحية ، إذ بيّن أن قول القائل : «(سلام عليكم) ، أنه يصلح للتحية ، والاستهزاء .. وإنما يتميّز بقصد المتكلم»(٢) وكأنه يريد بهذا العلاقة التي تربطه بالمخاطب ، وما يلابسها من أحوال .

وهذا يمثل بحق قمة ماانتهى إليه الدلاليون العرب من ربط اللغة بالمجتمع وبالواقع والظرف الاجتماعي . وهو أمر تعنى به الدراسات اللغوية الحديثة ، على أساس أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، لايمكن فصلها عن المجتمع والسياق الاجتماعي .

ومن هنا يتبين لنا مدى القصور الذي بلغته (البنيوية) الحديثة التي نشأت في فرنسا وأمريكا ، حين أهملت ما هو خارج عن النص من سياق اجتماعي وحالي ، ومن دليل العقل ، الذي أولاه — من بعد — جومسكي من تأثره أ من اللغويين ، في نظريته المعروفة في النحو بـ (التوليدية - التحويلية) ، اولاه أهمية واضحة — كما ألمعنا سالفاً — وسماه : (القدرة) .

(١) السعران : علم اللغة ص ٢٨٨ — ٢٨٩ . المعاجم اللغوية ص ٩٦ — ٩٧ .

(٢) نكت الانتصار لنقل القرآن ص ٨٧ . تنظر محاضراتنا في علم اللغة ص ٣١ — مخطوطة

ومع ان هناك من يرى ان البنيوية قد ماتت – ومنهم أديث كيرزويل(١) – كما تصورها ليفي شتراوس ، فلم تظهر (الأبنية العقلية الكلية) التي تصورها ولم يعد هناك من يبحث عنها ، إلا ان أثر هذه النظرية ظاهرة في مناهج غير واحد من اللغويين كالجدل الرمزي بين المعنى والبنية ، الذي تصدت له جوليا كريستيفا أو دراسة الكتابة لدى جاك دريدا بوصفها علم (العلاقة المكتوبة)، وكانت خيبة البنيوية الفرنسية قد مهد الطريق لظهور (ما بعد البنيوية). الأمر الذي يشعرنا بافلاس هذه النظرية كما تصورها واضعوها ، وخاصة أنها ارتبطت بالماركسية والوجودية والفرويدية والنظريات الانثروبولوجية ، مما جعلها نهباً لمفاهيم متباينة ، بل متضادة ، كما يجليها كتاب (عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو) ، على حين ان البنيوية في فكر اللغويين العرب المسلمين ، كانت أصدق كثيراً في تحقيق الفهم السليم الموضوعي والواقعي للنصوص المنطوقة والمكتوبة ، بما أصلته من منهج متوازن يقوم على قيمة الدلالة السياقية اللفظية ، أي اللغوية ، والدلالة السياقية الحالية ، والاجتماعية ، فضلاً عن العقل الذي كان له حضوره في الفهم اللغوي إزاء كثير من النصوص ، وخاصة الدينية منها .

(المصادر والمراجع)

١ – أبو الفرج : محمد أحمد (الدكتور) المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث – القاهرة ١٩٦٦ م .

٢ – الباقلاني : أبو بكر محمد بن الطيب : الانصاف فيما يجب اعتقاده تحقيق محمد زاهد الكوثري ، القاهرة ١٩٦٣ م .

٣ – الباقلاني الانتصار لنقل القرآن ، تحقيق محمد زغلول سلام – الاسكندرية ١٩٧١ م .

٤ – برجسترسر . ج : التطور النحوي ؛ تصحيح رمضان عبد التواب – الرياض – بلا

(١) عصر البنيوية : من ليفي شتراوس الى فوكو ص ١ ٢ .

٥ — البرزنجي : أكرم أحمد : الفاظ العبادات في القرآن الكريم دراسة دلالية، رسالة ماجستير مخطوطة ١٩٩٠ م .
٦ — تمام حسان (الدكتور) : مناهج البحث في اللغة ، دار الثقافة — الدار البيضاء — المغرب ١٩٧٩ م .
٧ — الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، بتحقيق عبد السلام هارون ، ط ٣ ، ، القاهرة — بلا .
٨ — الجرجاني : ابو الحسن علي بن محمد : التعريفات ،دار الشؤون الثقافية — بغداد .
٩ — الجرجاني : عبدالقاهر : دلائل الإعجاز ، صححه احمد مصطفى المراغي ، المكتبة التجارية — القاهرة ، بلا .
١٠ — الجواري : احمد عبدالستار (الدكتور) : نحو التيسير ، دراسة ونقد منهجي ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٨٤م .
١١ — جومسكي — نوم : البنى النحوية ، ترجمة د. يوئيل عزيز ، دار الشؤون الثقافية — بغداد ١٩٨٧م .
١٢ — الخولي : امين ، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب ، دار المعرفة — القاهرة ١٩٦١م .
١٣ — الراغب : ابو القاسم الحسين بن محمد : مفردات الفاظ القرآن ، تحقيق نديم مرعشلي — القاهرة ١٩٧٢م .
١٤ — رافع عبد الله مالو : منهج الراغب في كتابه : مفردات الفاظ القرآن ، رسالة ماجستير ، مخطوطة — الموصل ١٩٨٩ م .
١٥ — الزركشي : بدر الدين محمد بن عبد الله : البرهان في علوم القرآن ، تحقيق أبي الفضل ، ط ١ — القاهرة ١٩٥٧ م .
١٦ — الزمخشري : جار الله محمود بن عمر : الكشاف عن حقائق التأويل ، مطبعة البابي — القاهرة ١٩٤٨ م .

١٧ — الزيدي : كاصد ياسر (الدكتور) : الجاحظ الناقد التفسيري ، بحث في مجلة المورد العدد ٤ لسنة ١٩٨٨ م .
١٨ — الزيدي : كاصد ياسر (الدكتور) : فقه اللغة العربية ، دار الكتب للطباعة — الموصل ١٩٨٦ م .
١٩ — الزيدي : كاصد ياسر (الدكتور) : في علم اللغة ، محاضرات القيت على طلبة السنة الثالثة — مخطوطة ١٩٨٨ م .
٢٠ — الزيدي : كاصد ياسر (الدكتور) : منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم ، رسالة دكتوراه مخطوطة — القاهرة ١٩٧٦ م .
٢١ — السعران : محمود (الدكتور) : علم اللغة ، مقدمة للقارىء العربي دار المعارف — القاهرة ١٩٦٢ م .
٢٢ — سوسور — فردينان : علم اللغة العام ، ترجمة د . يوئيل يوسف عزيز ، مراجعة د . مالك المطلبي ، آفاق عربية — بغداد ١٩٨٥ م.
٢٣ — سيد أحمد عبد الغفار (الدكتور) : التصور اللغوي عند الأصوليين — جدة ١٩٨١ م .
٢٤ — الطبرسي : أبو علي الفضل بن الحسن : مجمع البيان في تفسير القرآن ، دار مكتبة الحياة — بيروت ١٩٦١ م .
٢٥ — طحان — ريمون (الدكتور) : الألسنية العربية (٣) ، ط ٢ ، دار الكتاب اللبناني — بيروت ١٩٨١ م .
٢٦ — الطوسي : أبو جعفر محمد بن الحسن : التبيان في تفسير القرآن ، المطبعة العلمية — النجف ١٩٥٧ م .
٢٧ — عثمان أمين : الفلسفة اللغوية ، سلسلة المكتبة الثقافية — القاهرة ١٩٦٥ م .
٢٨ — العسكري : أبو هلال : الفروق في اللغة ، دار الآفاق الجديدة ، ط ١ — بيروت ١٩٧٣ م .
٢٩ — علي زوين (الدكتور) : منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث ، دار الشؤون الثقافية — بغداد ١٩٨٦ م .

٣٠ — العياشي : أبو النضر محمد بن مسعود : تفسير العياشي ، المطبعة العلمية — قم ، بلا
٣١ — الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد : المستصفي من علم الأصول المطبعة الأميرية — القاهرة ١٣٢٢ هـ .
٣٢ — ابن فارس : أبو الحسن أحمد : مقاييس اللغة : تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٢ — القاهرة ١٩٦٩ م .
٣٣ — الفيروز آبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب : القاموس المحيط دار العلم للجميع — بيروت ، بلا .
٣٤ — ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم : أدب الكاتب ، تحقيق محمد محيي الدين ، ط ٤ — القاهرة ١٩٦٣ م .
٣٥ — القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد : الجامع لاحكام القرآن ، ط ٣ ، دار الكاتب العربي — القاهرة ١٩٦٧ م .
٣٦ — القزويني : جلال الدين محمد بن عبد الرحمن : التلخيص في علوم البلاغة — المكتبة التجارية — القاهرة ، بلا .
٣٧ — كيرزويل — أديث : عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو ، ترجمة جابر عصفور ، دار آفاق عربية — بغداد ١٩٨٥ م .
٣٨ — لاينز — جون : اللغة والمعنى والسياق ، ترجمة د . عباس صادق مراجعة د . يوئيل يوسف ، دار الشؤون الثقافية ١٩٨٧ م .
٣٩ — مصطفى جواد (الدكتور) : المباحث اللغوية في العراق ، مطبعة لجنة البيان العربي — القاهرة ١٩٥٥ م .
٤٠ — مكي نومان مظلوم : النحو في شروح ديوان الحماسة لأبي تمام ، رسالة ماجستير مخطوطة — الموصل ١٩٩٠ م .
٤١ — اليازجي — ناصيف : العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب بلا .

المصطلح اللغوي في شعر امرىء القيس برواية الأصمعي

د . محيي الدين توفيق ابراهيم
كلية الاداب / جامعة الموصل

مقدمة

على الرغم من أن شعر امرىء القيس يعد من أقدم ما بين أيدينا من الكلام العربي المدون فاننا نجد فيه أساليب وتعبيرات لم نزل نتداولها في ما نكتب ونتكلم في يومنا هذا . ولاغرو فان شعر امرىء القيس من اللغة الفصحى التي أصبحت في العصر الجاهلي اللغة الرفيعة التي كتبت بها النصوص الأدبية كشعر الشعراء ولا سيما شعر المعلقات وشعر أصحابها وخطب المشاهير من خطباء العرب .

إننا حين ندرس لغة امرىء القيس وأساليبه نضع أيدينا على مجموعة من التراكيب الاصطلاحية ، منها ما وجدناه بين أساليب القرآن الكريم وكثير منها قد قرآناه في شعر هذا الشاعر الكبير .

وقد استطعنا ان نستخلص مائة وتسعة وثمانين تعبيراً اصطلاحياً منها ثمانية وستون مصطلحاً من شعره برواية الأصمعي مما يصدق عليه اسم (المصطلح اللغوي). وهو ان تجتمع لفظتان فأكثر في تركيب اسنادي أو غير اسنادي فينشأ عن هذا التركيب معنى جديد لا تدل عليه معاني الالفاظ الداخلة فيه كل على حدة (١). عشرة منها تستعمل في القرآن الكريم وهي المصطلحات (بعيني) في قوله (بات بعيني قائماً)(٢) وهو مثل قوله تعالى : (واصنع الفلك بأعيننا)(٣) و (شغفت فؤادها)(٤)وهو كقوله تعالى : (قد شغفها

(١) ينظر بحثنا المصطلح اللغوي في القرآن الكريم، مجلة المجمع العلمي العراقي – الجزء الرابع مجلد ٣٧ سنة ١٩٨٦ ص ٥ .
(٢) المصطلح رقم ٧ .
(٣) هود / ٣٧ .
(٤) المصطلح رقم ١٥ .

حبا) (١) و (تقطع أسباب اللبانة) (٢) وهو كقوله تعالى : (وتقطعت بهم الأسباب) (٣) وقوله (قرت به العينان) (٤) كقوله تعالى: (كي تقر عينها) . وقد ورد في مواضع في القرآن الكريم (٥) وقوله : (أصفاهم به) (٦) وهو مثل قوله تعالى : « أفأصفاكم ربكم بالبنين» (٧) ، و(اسود وجه الجبان) (٨) وهو كقوله تعالى : (ظل وجهه مسوداً) (٩) وقوله : (تضيق ذراعي) (١٠) وهو كقوله تعالى: (وضاق بهم ذرعاً)(١١) وقوله: (يروح على أثارشائهم) (١٢) مثل قوله تعالى : (وقفينا على أثارهم بعيسى بن مريم) (١٣) وقوله : (جوفه خرب) (١٤)وهذا قريب في المعنى من قوله تعالى : (وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً) (١٥) وإن اختلفت الفاظهما ، وقوله : (ما أحطته بعلم) (١٦)وهو كقوله تعالى: (وإن الله قد أحاط بكل شيء علماً)(١٧) .

وهذه التراكيب الاصطلاحية في شعر امرىء القيس تسلك المسار نفسه الذي سلكته مصطلحات القرآن الكريم من حيث الانتقال من المعاني الحقيقية إلى المعاني المجازية استعارة أو كناية أو مجازاً لغوياً .فمن الاستعارة قوله:

---

(١) يوسف /٣٠ .
(٢) المصطلح ٢٣ .
(٣) البقرة /١٦٦ .
(٤) المصطلح ٢٧ .
(٥) مريم ٢٦، طه /٤٠ ، القرقان /٧٤،القصص /٩ ،١٣، السجدة /١٧ الأحزاب/٥١.
(٦) المصطلح ٣٨ .
(٧) الإسراء /٤٠ .
(٨) المصطلح ٣٩ .
(٩) النحل /٥٨ .
(١٠) المصطلح ٤٢ .
(١١) هود / ٧٧ ، العنكبوت /٣٣ .
(١٢) المصطلح ٤٤ .
(١٣) المائدة /٤٦ .
(١٤) المصطلح ١٦٤ .
(١٥) القصص /١٠ .
(١٦) المصطلح ١٨٥ .
(١٧) الطلاق /١٢ .